شعر الحرب في عصر بني أيوب

الدكتور ناظم رشيد شيخو
كلية الآداب – جامعة الموصل

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تمهيد:

تناول باحثون عديدون شعر الحرب عند العرب، (١) دراسة وتحليلاً وقال احدهم، بعد أن درس الشعر الحربي من أول عصر بني أمية الى منتصف القرن الرابع للهجرة: «إني أرجو أن أوفق الى التوفر على دراسة أدب الحماسة العربية، والكتابة عن عصر صلاح الدين الايوبي والصليبيين، ونفسي تجيش بهذا الامل، كما أتمنى من علماء الأدب أن يعنون بدراسة هذا الوجه الحربي في شعر الحرب ، إذ كان ألصق الأشعار بهم، وأنطقها بحقيقتهم في كل أعصرهم، في ساح بداواتهم، وميادين حضاراتهم، لعل يوماً أغر محجلاً يكون فيه للعربية ملحمة جديدة تجمع بين مجدها التالد وعزها الطارف».

قامت معارك عنيفة، واشتباكات دامية، بين المسلمين والصليبيين على أرض الشام ومصر منذ سنة ٤٩٢ للهجرة، وهي السنة التي نزح فيها الغرب الى السواحل الشامية، ومن ثم جاس خلال الديار، وقتل الآلاف ، واحتل المدن الرئيسة، وبخاصة القدس. وكان للزنكيين دور مشرّف وبارز في صدهم بقوة، ومجابهتهم بصلابة ، ومحاربتهم بشتى الوسائل. ووقف الشعراء الغيارى الى جانب قوادهم الأشاوس وفرسانهم الميامين، وأشادوا ببطولاتهم، وتغنوا بانتصاراتهم، وتباهوا بضرباتهم، أمثال ابن الدهان الموصلي، وابن منير الطرابلسي، ومحمد بن نصر القيسراني ، وعماد الدين

---

(١) ينظر «شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام» للدكتور النعمان القاضي، و شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة» للدكتور زكي المحاسني، و «معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية» رسالة ماجستير لهادي نهر، مطبوعة على آلة الرونيو .

(٢) شعر الحرب في أدب العرب ص ٣٢٩ .

الأصفهاني الذي لازم نور الدين محمود بن زنكي، ونظم له رباعيات، بطلب منه، وعلى لسانه، لتنشد أمام الجند لالهاب المشاعر، واثارة العواطف، والاستنفار الى الجهاد، وهي ظاهرة جديدة في الشعر العربي، منها قوله: (١)

أقسمت ما نوى الجهاد مالي أرب ... والراحة في سواه عندي تعب
إلاّ بالجد لاينال الطلب ... والعيش بلا جدّ جهاد لعب

وقوله:

للغزو نشاطي واليه طربي ... مالي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهادِ نجحُ الطلب ... والراحة مستودعةٌ في التعب

ولما تسلم صلاح الدين الأيوبي مقاليد الحكم في مصر سنة ٥٦٧هـ، والشام سنة ٥٧٠هـ، وأقام دولة ثابتة الأركان، رصينة البنيان، برزت خطة الكفاح والجهاد، واخذت طابع العناد والتصميم على استرجاع الأرض السليبة وطرد الغزاة منها مهما كان الثمن غالياً، سواء كان هذا الثمن بالأرواح أم بالأموال، وتحول المسلمون من الدفاع الى الهجوم.

عُني صلاح الدين بكتب الجهاد عناية فائقة. يقول قاضيه بهاء الدين بن شداد: (٢) وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه، يحثه على الجهاد، أو يذكر شيئا من أخبار الجهاد، ولقد ألفت له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً، جممت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه». كما عُني رجال أسرته بهذه الكتب، فألف محمود بن محمد بن صفي الدين كتاب «الجهاد» للملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل (٣). وألف أبو العوالي مرتفع بن جزيل كتاب «سبل الرشاد في فضل الجهاد» للملك الصالح نجم الدين أيوب (٤).

---

(١) الروضتين ١ : ٢٠٧
(٢) النوادر السلطانية ص ٢١.
(٣) كشف الظنون ص ٩٧٨.
(٤) بغية الوعاة ٢ : ٢٨.

وكان صلاح الدين يحفظ حماسة أبي تمام، (١) ويحب سماع القصائد الحماسية الجيدة حينما يركن الى الراحة بعد المعارك، وكثيراً ماكان يستدعي أحد الأدباء، ويطلب منه القراءة في ديوان أحد الشعراء . ويعد ديوان أسامة ابن منقذ الشاعر الشامي المشهور من آثر الدواوين الى نفسه، قال العماد الأصفهاني (٢) «كنت ليلة عند صلاح الدين، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف». وكان لحفيده يوسف بن محمد صاحب حلب عناية بالدواوين الشعرية وكتب الحماسة ، وقد ألف له صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري كتاب «الحماسة البصرية». (٣) كما قرب صلاح الدين الشعراء، واستمع اليهم في حلّه وترحاله، وسلمه وحربه، واستأنس بأقوالهم، وشملهم ببره واحسانه، وأظلهم بعطفه وحنانه. قال ابن العديم: (٤) «ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة ابن حمدان مااجتمع ببابه من الشعراء رحمه الله وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء». وقد تضافر حسبما أحصينا أكثر من ستين شاعراً من الشام ومصر والعراق والمغرب على رسم بطولاته ، والإشادة بمواقفه العظيمة ووقائعه المظفرة في حرب الصليبيين وجلائهم عن المواقع التي احتلوها ، وطردهم من المدن التي استباحوها، ولاسيما القدس ، ونعته أحدهم لأعماله العظيمة بـ« ربّ الملاحم»:

ربُّ الملاحمِ، لم يـؤرخْ مثلَها ... العلماءُ قِدماً في قديمِ الأعْصُرِ
مَنْ رامَ من كل الملوكِ مرامَهُ ... تخفقْ مساعيهِ ويكبُ ويَعْثُرِ (٥)

(١) الروضتين ٢ : ٢١٨ .
(٢) الروضتين ١ : ٢٤٧ .
(٣) تنظر مقدمة الحماسة البصرية ص ٢ .
(٤) زبدة الحلب في تاريخ حلب ٣ : ١٢٥ .
(٥) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤١ .

وجرى الشعر على ألسنة أغلب ملوك الأُسرة الأيوبية (١) ، ووصلت الينا دواوين فريق منهم ، ونال الشعر الحماسي لديهم نصيباً كبيراً من الرعاية والعناية، ينشدونه في مجالسهم، ويترنمون به في سوح المعارك ، وساعات النزال. من ذلك ماروي عن عز الدين بن نور الدولة بن أخي صلاح الدين ، وأحد قواده الشجعان حينما قاد جيشاً في معركة دارت قرب بانياس سنة ٥٧٠هـ، وانتصر فيها، إذ ذكر الشعر بقوله: (٢) « ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما.

فإن تكن الدولات قسماً فإنّها لمنْ يردِ الموتَ الزؤامَ تؤولُ
ومنْ هوّن الدنيا على النفس ساعة وللبيضِ في هام الكُماةِ صليلُ

فهان الموت في عيني، فألقيت نفسي فيه، وكان ذلك سبب الظفر».

إن الحروب الصليبية أذكت قرائح الشعراء ، وحركت مكامن انفعالاتهم ودفعتهم الى نظم قصائد حماسية تعكس صدى بطولات الجيش وقواده في مقاومة الأعداء ، وتبديد شملهم، و تحطيم معاقلهم. وقد غلب هذا اللون من الشعر على الألوان الأخرى في هذه الحقبة. ويكاد يكون الجزء الأعظم من دواوين بعض الشعراء يتناول أدب القتال والحض عليه،ووصف الجيوش وآلات الحرب، وابراز فضائل الشجاعة والبطولة، كما هو الحال في ديوان فتيان الشاغوري، وديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري. وخصص أبو الفضل عبد المنعم بن عمر الجلياني الأندلسي ديواناً كاملا لهذا الغرض سمّاه «المبشرات والقدسيات»، وصفه ابن أبي أصيبعة فقال (٣): «إنه نظم وتدبيج، وكلام مطلق، يشتمل على وصف الحروب والفتوح على يد صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس».

---

(١) ينظر «الأدب عند بني أيوب» . مجلة المورد، المجلد الخامس، العدد الثالث ١٩٧٦، ص٣٥.
(٢) الكامل لابن الأثير ١١ : ٤٥٦، سنا البرق الشامي ١ : ٣٣٠ .
(٣) عيون الأنباء ٣ : ٢٦٥ .

شعر الاستنهاض والاستنجاد :

لقد صور الشعراء في لوحات خالدة الحروب التي دارت رحاها على أرض الشام ومصر ، ونعتوا مشاعر الناس وأحاسيسهم تجاه تلك الحروب واول مايلقانا من هذا الشعر ما يختص بالاستنهاض والتحريض لاقتلاع جذور البغي والعدوان، وازالة الاحتلال البغيض الذي جثم على صدور الناس الآمنين، وثلم عزتهم، وجرح كرامتهم، وأباح ماملكت أيديهم.

ظهر الإسلام في قصائد الشعراء، مستصرخاً الناس الى الجلاد، منادياً بملء صوته: «حي على الحروب؛ لأنه أصبح يواجه هجمات من فئات باغية، وضربات من أناس ظالمين، لارحمة في قلوبهم ولا شفقة، همُّهم طمس معالمه، وتشويه آثاره، واطفاء أنواره. فها هو ذا يعدو الى صلاح الدين يستغيثه ويستنجده، ويقول على لسان شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن الفراش (١) :

ترى الإسلام وافاك يعدو ... الى لُقياك مشقوقَ الجيوبِ
وقد نادى مؤذنهم، فنادى ... ليوثُ الغاب: حي على الحروبِ

ولا يقر للإسلام قرار، ولا يهدأ له بال، مادام خصمه رابضاً أمامه يتحين الفرص للنيل منه، والاجهاز عليه. فهو يستثير جنوده، ويدعو حاملي ألويته أن يقبلوا عليه، ويلقوه صريعاً أو أسيراً كما يقول العماد الأصفهاني مخاطباً صلاح الدين (٢) :

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا ... لكم من دماءِ الغادرينَ بها غدرا
فصبُّوا على الإفرنج سوطَ عذابها ... بأن يقسموا مابينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيتَ المقدسَ واعزموا ... على فتحه غازينَ وافترعوا البكرا

---

(١) الخريدة، قسم الشام ١ : ٣٠٣ .
(٢) الروضتين ١ : ١٧٩ .

تديمون بالمعروفِ طيبَ ذكركم وما الملكُ إلاّ أن تديموا لكم ذكرا

ولم يكتف الشاعر بتوجيه الضربة القاصمة للإفرنج ، وإلهاب ظهورهم بسياط العذاب، وانما طلب من صلاح الدين أن ينتزع القدس من أيديهم، ويمتلكها، فهي لاتزال بكراً لم تستسلم للغرباء، ولم تركع للبعداء، ليحفظ ماء وجهها، ويصون كرامتها، ويدخر لنفسه ذكراً طيباً واحساناً دائماً.

وقد أحس الشعراء أن الاحتلال لاتزول آثاره من الشام مهما سقط للصليبيين من قلاع وحصون، ماداموا قابضين على القدس بيد من حديد، ومهيمنين على المسجد الأقصى بمخالب كاسره، لذا نراهم ينوهون بقيمتها، ويُعظّمون من مكانتها، ويرغبون صلاح الدين في الأقبال عليها وامتلاكها، وشبهوها بفتاة حسناء، غالية الثمن، وعزيزة المطلب، ولا تليق لأحد غيره، وتتكررُ هذه الصورة عند أكثر من شاعر، وكأن القرائح قد نضبت من إتيان صور أخرى فيها خلق وابداع ، فهذا الملك المظفر تقي الدين عمر أحد الأبطال المشهورين في مقارعة الصليبيين يقول (١) :

إيهٍ صلاح الدين، خُذها غادةً بكراً ، ملوكُ الأرضِ من رقبائها

كم خاطبٍ لجمالها ، قد ردَّهُ عن نيلها أنْ ليس من أكفائهـــا

ونلقى لوحة اخرى عند سعادة بن عبد الله الأعمى أكثر جدة وأعمق أثراً، فهو يرى ان المعالي وان كانت طيبة الجنى، حلوة الثمر لاتنال الاّ بجدارة ومقدرة،ولايرقى المرء اليها بيسر وسهولة،وإنما بالمقارعة والمجالدة (٢)

ولا تخف، فالعوالي شوكها ثَمَرٌ حلو الجنى، والمعالي صابُها شَهَدُ

واخطبْ بحدِّ المواضي في كل شامخةٍ في أنفها شمم في جيدها غَيَدُ

---

(١) الخريدة، بداية شعراء الشام ص ٨٦ .

(٢) الخريدة، قسم الشام ١ : ٤١٤ .

فمن يكن بالمواضي خاطباً أبـــداً زُفّتْ اليه بلادٌ كلها خُرُدُ

وأحسب أن احتفال الشعراء بصورة الفتاة الغيداء اللفّاء من قبيل إغراء الممدوح الى فتحها وتطهيرها من دنس الإفرنج.

ولما كان استرداد القدس من أعزّ الأماني ، وأغلى الرغبات ، لذلك لم تفتر ألسنة الشعراء عن ذكرها، وتوجيه الخطاب لصلاح الدين في استنقاذها واسقاط الامارات الصليبية التي أرهقت الناس بعسفها وظلمها ، ودعوة الرجال الى الجهاد والكفاح والالتحاق بصفوف المقاتلين الذين نذروا أرواحهم للدفاع عن الدين والأرض والشرف والكرامة ، ونصبوا أنفسهم لنصرة الحق والعدل ، ونخص بالذكر منهم أبا الفضل الجلياني الذي آله تنعم الأفرنج في الأراضي التي احتكروها لمآربهم، وخشي على المدن المقدسة من الخراب والدمار، ولا سيما القدس، كما يقول في الأبيات الآتية من قصيدة طويلة (١) :

فيا ملكاً ، لم يبقَ للدين غيـرهُ وهتْ عمدُ الإسلام ، فاشددْ لها دعما

فذا المسجدُ الأقصى ،وهمتّك العلا وعزمتك القصوى، ورميتك الصما

فما هو إلاّ أن تهمّ ، وقد أتتْ فتوح، كما فاضَ الخضمُّ الذي طما

وإن أنتَ لم تُرد الفرنجَ بوقعةٍ فمن ذا الذي يقوى لبنيانها هدما؟

وما كلُّ حينٍ تمكنُ المرءَ فرصةٌ ولا كل حال أمكنتْ تقتضي غُنما

وكان الشاعر يستغل كلّ فرصة أو مناسبة يلتقي فيها بصلاح الدين لينشده قصيدة جديدة في مدحه، ويعرّج فيها على زهرة البلاد، القدس العزيزة، التي تندب حظها ، وتستصرخ الكماة الى ملحمة يثأرون فيها للدماء الزكية التي سكبت على أرضها، وقد بلغ القمة في المدحة التي أنشدها بين يديه قبل عام واحد من فتحها وتحريرها، منها البيتان الآتيان (٢) :

(١) الروضتين ٢ : ١١٦ .
(٢) الروضتين ٢ : ١١٦ .

اللهُ أكبرُ،أرضُ القدس قد صفرت من آل أصفر إذ حَنّ به حانوا
ولابن أيوبَ في الإفرنج ملحمةٌ دلّت عليها أساطيرٌ وحُسبانُ

لقد أصبحت الآمال معقودة بصلاح الدين دون سواه من حكام المسلمين في رفع الحيف عن المستضعفين، ودفع الأذى عنهم بعد تسعين عاماً، وقد أشار الى ذلك الحسن بن علي الجوبني في قصيدة له، فقال: (١)

تسعونَ عاماً، بلادُ اللهِ تصرخُ والـ إسلامُ أنصارُه صُمٌّ وعميانُ
فالآن لبىّ صلاحُ الدين دعوتهم بأمرِ منْ هو للمعوانِ معوانُ

وصدق حدس الشعراء في الفارس الهمام صلاح الدين، وتحققت أمنياتهم ولم تذهب دعواتهم في الاستنهاض والحض على الجهاد سدًى. فهو يلتقي بالصليبيين في واقعة «حطين»، ويُمزق شملهم، ويُحطّم جمعهم، ويصرع فرسانهم، ويأسر قوادهم،ويغنم أسلحتهم وأموالهم وتتوالى عليه القصائد، منها قصيدة أبي الفضل الجلياني المعروفة بـ «الفتحية الناصرية»، يقول فيها: (٢)

ياوقعةَ التل ماأبقيت من عجبٍ جحافلٌ لم يفت من جمعها بشرُ (٣)
حطُّوا بحطين ملكاً كافياً عجباً في ساعة زال ذاك الملك والقدرُ
أهوى اليهمْ صلاحُ الدين مفترساً وهو الغضنفرُ أعدى ظفرهُ الظفرُ
أملى عليهمْ، فصاروا وسط كفته كسرب طير حواها القانص الذكرُ

وتوجه القائد المظفر الى بيت المقدس، وكان فيها مايزيد على ستين ألف مقاتل، واشتبك معهم في قتال ضار، ولما وجدوا أنفسهم غير قادرين على الصمود ، وأنهم خاسرون لامحالة، طلبوا الصلح والأمان، فأبى «إلاّ قتالهم وتدميرهم » واستئصالهم، وقال: لا آخذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين

---

(١) الروضتين ٢ : ١١٥ .
(٢) الروضتين ٢ : ١١٦ .
(٣) التل : تل حطين

منذ إحدى وتسعين سنة. (١) وتحقّق الحلم الأكبر، والأمل الأعظم، وعادت المدينة الى اصحابها، وفتحت أبوابها، واستقبلت القادمين اليها بأهازيج الانتصار.

ولم يدع الشعراء صلاح الدين يخلد الى الراحة، ويعيد سيفه الى غمده ويأى عن صليل السيوف، وقراع القنا، وصهيل الخيل، ولا سيما بعدما علموا ان الصليبيين دقّوا ركائز خيامهم على شواطىء البحر الأبيض المتوسط بعد خروجهم من القدس، وأخذوا يتسلّمون الامدادات من الغرب من رجال وسلاح ومؤونة، ويعدّون العدة، ويسنون الحراب، لاستعادة مافقدوه فاستنهضوا صلاح الدين من جديد، لمطاردتهم وتبديد أحلامهم، ودعا بعضهم الى عبور البحر، وغزو ديارهم، واحتلال بلادهم. قال أبو الفضل الجلياني من قصيدة طويلة: (٢)

تغزو أساطيلنا منها صقلية ... فتذعرُ الرومُ والصقلابُ والخزرُ
أبو المظفر ينويها، فخذ سفناً ... من باب عكا الى طرطوس تنتشرُ
يسبي فرنجة من أقطارها، وله ... مع المجوس حروب قدحها سعرُ
براية تخرق الأرض الكبيرة في ... جمع تقول له الأجسام: لاوزرُ

فالشاعر لم يكتف بطرد الصليبيين من الشام، وقذفهم في البحر، وانما أراد دك معاقلهم في أوطانهم، واقامة دولة كبيرة ترفرف عليها راية المسلمين خفاقة، نكاية بهم، و تأديباً لهم، لكيلا تداعب العودة أحلامهم.

ثم اختطفت يد المنون صلاح الدين، وتقاسم ملوك بني أيوب مصر والشام واليمن، وبقي الصليبيون قابعين في السواحل، يتحينون الفرصة للانقضاض على ما أخذ منهم عنوة. وأدرك الشعراء مايحيكون من شباك، فأقبلوا على الملوك حاملين عصارة قرائحهم في الاستثارة والاستنهاض، مثل بهاء الدين اسعد بن يحيى السنجاري في قوله مخاطباً الملك المنصور محمد

(١) الروضتين ٢ : ٩٥ .
(٢) الروضتين ٢ : ١١٦ .

بن تقي الدين عمر صاحب حماة حينما كان ملازماً تخوم العدو بالقرب من الساحل الشامي: (١)

يأيها الملك المنصور نصحُ فتىً ... لم يلْوِهِ عن وفاءٍ كثرةُ العذَلِ
اعزم، ولا تترك الدنيا بلا ملكٍ ... وجد، فالملكُ محتاجٌ الى رَجُلِ
وابرز الى الموت يوم الروع مُدرعاً ... قلباً، اذا زالت الأفلاك لم يزُلِ
وهَّم في طلبِ العلياءِ مرتقياً ... وارسل الجيش أبدالاً من الرُّسُلِ
واهصُرْ عِداك كهصرِ الليثِ طعْمَته ... وصُلْ اذا الليثُ في الهيجاءِ لم يَصِلِ
صفِّدهم عاجلاً، واجعل حصونَهم ... سجونهم فهم في غاية الفشلِ

لقد شد من أزر الملك المنصور، وقوّى عزيمته، ودفعه الى خوض معركة حامية مع الخصم اللدود، والوقوف كالليث في مواجهته، والاقبال عليه ببسالة. واقتحم الملك الحرب، ونال منهم نيلا مؤثراً، ولكنه لم يكن الانتصار الحاسم عليهم.

ومن شعر الاستنهاض الجيد في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ أُمتنا المجيدة قصيدة الملك المعظم عيسى بن أبي بكر التي أرسلها من دمشق الى أبيه في مصر يستحثه في العودة لمحاربة الأعداء الذين ينوون شن غارة شعواء على المسلمين، وأولها: (٢)

أرْوِ رماحكَ من دماءِ عداكا ... وانهبْ بخيلكَ مَنْ أطاع سواكا
واركب خيولا كالسعالي شُزَّباً ... واضرب بسيفك من يشق عصاكا
وأجلبْ من الأبطال كل سميدعٍ ... يفري بعزمكَ كل من يَشْناكا
وسرِ الغداةُ الى العُداةِ مبادراً ... واسقِ المنيّة سيفَك السفاكا
وانكحْ رماحكَ للثغور فإنّها ... مشتاقةٌ أن تُبْتنَى بعُلاكا

(١) مفرج الكروب ٣ : ١٤٤ .
(٢) بدائع البدائه ص ٣٢١ . نفح الطيب ٣ : ٢٥١

فالعزفي نَصْبِ الخيامِ على العدا تُردي الطغاةَ وتدفعُ الملاكا
والنصرُ في الأعداءِ يومَ كريهةٍ أحلى من الكأسِ الذي رَوّاكا

إن هذه الابيات من الشعر الحماسي الذي عرفه العرب، والشعراء الفرسان منهم خاصة، ففيها الدعوة الى المجالدة والنزال، ومقارعة الخصم حتى يركع معفراً بالتراب، ومسربلاً بالدم، ويجر مَنْ بقي أذيال الخيبة والخسران والذل والهوان .

وبادر الصليبيون الى الهجوم ، و ضرب المدن الآمنة ، ومحاولة احتلالها كرة اخرى. ولكن خاب سعيهم، ولم يجنوا غير الهزيمة الماحقة. وتكاد تكون دمياط أكثر المدن ألهاماً للشعراء. يقول المقريزي في حوادث سنة ٦١٥هـ: (١) والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر ، وأحدقوا بها وحاصروها، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات أن تصل اليهم، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً، وبنوا عليه سوراً... وكان في دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكناني، فكتب هذه الابيات، وألقاها الى الملك الكامل في سهم نشاب، وهي:

يامالكي ، دمياط ثغر هُدمّتْ شرفاته ، كادتْ تجثُّ أُصولُه
يقريكَ من أزكى السلام تحيةً كالمسك، طابَ دقيقُه ، وجليلُه
ويقولُ عن بعدٍ، وإنكَ سامعٌ حتى كأنكَ جارهُ ونزيلُه
ياأيُّها الملك الذي ماإن يُرى بينَ الملوكِ شبيهُهُ وعديلُه
هذا كتابٌ موضحٌ عن حالتي ماليس يمكنني لديك أقولُه
أشكو اليكَ عدو سوءٍ أحدقتْ بجميعهِ فرسانُه وخيولُه
فالبرُّ قد مُنعت إليه طريقُه والبحرُ عز لنصرهِ أُسطولُه
فخضوعُه بسادٍ على أبراجهِ وحنينه وبكاؤه وعويلُه

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ : ١٩٨ .

والقصيدة طويلة ، اخترنا منها هذه الأبيات ، وهي تشرح حال المدينة المحاصرة ، وما يعاني أهلها من ذعر وهلع ، وبؤس وشقاء . وكانت القصيدة على خفّة أبياتها ، وسهولة الفاظها ، وبساطة تراكيبها — ذات تأثير كبير، دفعت الملك الكامل إلى إعلان الجهاد العام . وكتب إلى أخيه الملك الأشرف موسى صاحب حرّان وديار بكر آنذاك يستنجده ويستحثه للمجيء إلى مصر بجيش لجب ليكون عضداً له في فك الحصار عن دمياط ، وعوناً في إقصاء الغزاة المعتدين قبل أن يستفحل أمرهم ، وتتركز أقدامهم على أرض النيل(١):

يامسعفي ، إنْ كنتَ حقاً مسعفي ... فانهضْ بغيرِ تلبثٍ وتوقفِ
واحثُثْ قَلُوصك مُرقلاً أو موجفاً ... بتجشّم في سيرها وتعسف
واطوِ المنازلَ ما استطعتَ، ولاتُنخْ ... الاّ على بابِ المليكِ الأشرفِ
واقرِ السلامَ عليه من عبدٍ له ... متوقّعٍ لقدومه مُتشوّفِ
واذا وصلتَ إلى حماهُ فقلْ له ... عنّي بحسنِ توسلٍ وتلطفِ
إنْ تأتِ عبدكَ عن قليلٍ تلقَهُ ... ما بينَ كل مهنّدٍ ومثقّفِ
أو تبطِ عن انجادهِ فلقاؤه ... بكَ في القيامةِ في عراصِ الموقفِ

لقد أفصحت هذه الأبيات عن الدعوة العاجلة التي لارخصة فيها ولا توان . فلا مناص من النهوض بغير تلبّث وتوقّف ، وحث القلوص حثاً ، سواء أكان إرقالاً أم وجيفاً ، وطي المنازل جَهْدَ الوسع والطاقة ، خشية فوات الأوان .

كما أفصحت عن الشعور المضطرم في الجوانح ، شعور تمليه الغيرة على الدين والحمى ، ويسوقه الخوف الشديد إنْ ملك الأعداءُ زمام المدينة ، وصبوا عليها جام حقدهم ، ومرارة اخفاقهم على يد صلاح الدين وحملاته المتتابعة ، فهم — ولاريب — سيجرون الدماء أنهاراً ، والعباد أشلاءً ، والزرع والضرع تدميراً واحراقاً .

(١) الحوادث الجامعة ص ١٠٧، السلوك ١ : ١٩٧ ، خطط المقريزي ٢ : ٣٧٦ .

وما خاب ظنه بأخيه ، إذ خفَّ اليه على الصعب والذلول ، وأدركه وهو بين اليأس والرجاء ، حتى دحرَ القومُ الأعداءَ ، ومزقوهم شرَّ ممزق .

كانت القصائد التي نظمت في نجدة دمياط كثيرة ، ولعلَّ قصيدة ابن النبيه المصري التي أنشدها بين يدي الملك الأشرف موسى حينما وصل إلى مصر من أجودها ، ومطلعها : (١)

للذَّة العيشِ والأفراحِ أوقاتُ فانشرْ لواءً له بالنصرِ عاداتُ

ومنها : .

دمياطُ طُورٌ، ونارُ الحربِ مُوقَدَةٌ وأنت موسى،وهذا اليومُ ميقاتُ

أنت الصباحُ، فمزِّقْ ليل كفرهمُ واصبرْ ورابط فللأعمالِ نيّاتُ

ألقِ العصا تتلقّفْ كل ماأفكوا ولاتخفْ ماحبالُ القومِ حيّاتُ

طأهم بجيشك، لا تحفلْ بكثرتهم فإنّهمْ لبغاثِ الطيرِ أقواتُ

استوحى الشاعر معاني أبياته من قصّة النبي موسي – عليه السلام – مع فرعون وسحرته الذين (قالوا ياموسي إما أن تُلقي وإما أنْ نكون نحن الملقين، قال القوا،فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم، وأوحينا الى موسى أن القِ عصاك فاذا هي تلقف مايأفكون،فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون) (٢) .

شعر التهاني والبشائر :

إن الشعر الحربي في عصر بني أيوب كثير وفير، تبعاً لكثرة الأحداث وترادفها،وبروز الرجال وتصارعهم، وتحيُّر الناس واضطرابهم، فكان منه شعر الاستنهاض الذي يُعد البداية المتوقعة لكل حدث جلل – وقد ألمنا بطرف منه – وشعر الانتصار، الذي تعارف القوم على تسميته « بشعر التهاني والبشائر»، وهو الذي يزجى الى القواد والأبطال غبَّ كل انتصار مؤزر،

(١) ديوان ابن النبيه المصري ص ٣٥٤ .
(٢) سورة الأعراف، الآيات ١١٥ – ١١٨ .

وتعدّ حصة صلاح الدين فيه من أكبر الحصص، ففي فتح «بيت الأحزان» سنة ٥٧٥هـ مثلاً قال العماد الأصفهاني (١): «وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن»، وذكر أمثلة لعدد من الشعراء، منهم نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي من أهل الحلة في قوله:

وأوردت بيضَ الهندِ ماءَ رقابهم ... وأصدرتها تختال في حُلَلٍ حُمر
جلوت به صمصامة الدين بعدما ... علا متنَها من بغيهم صدأُ القدر
هي الفتكةُ الغراءُ، لازلت قائماً ... بأمثالها للدين في السرِّ والجهدِ
فأصبح في أقصى خراسان ذكرُها ... وفي كل قلبٍ منه جيش من الذُّعرِ

كانت السيوف والدين — في عرف الشاعر — من أبرز الدواعي الى فتح صلاح الدين «بيت الأحزان». فالسيوف قد أضر بها الظمأ فأصبحت تتحرق الى الري، والدين قد أثقله صدأ البغي والقسر فأصبح يتطلّع الى الجلوة والنقاء.

ولهذا كانت هذه الفتكة الغراء التي طبقت أخبارها أقصى خراسان، وجرى حديثها على كل لسان أمارة الاستجابة الصادقة والفعل الناصع، فاذا السيوف تقع على الشرع تنهل منه وتعب، وتسرف في النهل والعب حتى تصدر عنه ممتلئة رياً. واذا يلقي عن كاهله ماران عليه من الصدأ، ويعود مشرقاً وضاءً.

لقد أمدّت الانتصاراتُ الخالدةُ الشعراءَ بمعين لاينضب من قصائد التهاني، تلك الانتصارات التي زها بها الإسلام، وعمت أنواره مدناً كانت تزرح تحت نير القهر والاستعباد. قال العماد الأصفهاني مهنئاً صلاح الدين بفتح قلعتي حمص وبعلبك (٢):

بفتوح عصرك يفخر الاسلام ... وبنور نصرك تشرف الأيام
أسدى صلاح الدين والدنيا يدٌ ... بنوالها سوق الرخاء تقام

(١) سنا البرق الشامي ١ : ٢٣٧ .
(٢) مفرج الكروب ٢ : ٣٠ .

دم للعلى، حتى يدوم نظامها واسلم ، يعز بنصرك الاسلام

وحينما دخل صلاح الدين مدينة طبرية، أنشده ابن الساعاتي قصيدة مطلعها(١):

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرّتْ عيونُ المؤمنينا

تغنى الشاعر في قصيدته بهذا الفتح، وأشاد بالظفر العظيم الذي حقّق للمسلمين أمانيهم ،وأزال شكوكهم ،وطمأن قلوبهم ، وأبهج القدس الجريحة وأسرّها ما دام هناك مجيب لنداء الجهاد :

قضيت فريضة الاسلام منها وصدقت الأماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجاً وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهاد يطيق نطقاً لنادتك : ادخلوها آمنينا
أعدت بها الليالي ، وهي بيضٌ وقد كانت بها الأيام جونا

وتسابق الشعراء إلى نظم قصائد النصر بعد معركة «حطّين» ،الملحمة الخالدة التي أذهلت الصليبيين ،وارجفت قلوبهم، وأفقدتهم صوابهم، وجعلتهم لايقوون على الوقوف أمام البطل الجريء الذي نازعهم ورد غائلتهم، ودخل البيت المقدّس رافعاً راية النصر ليتفيأ الخلق في ظلالها، ويتنسّم الجميع عبير الحرية .قال الرشيد بن بدر النابلسي (٢):

هذا الذي كانتِ الآمالُ تنتظرُ فليوفِ للهِ أقوامٌ بما نذروا
بمثلِ ذا الفتحِ، لاواللهِ ،ماحكيتْ في سالفِ الدهر أخبارٌ ولاسيرُ
الآنَ قرّتْ جَنوبٌ في مضاجيعها ونامَ مَن لم يزل حلفاً لهالسّهرُ
بابهجة القدس ، إذ اضحى بهعلمالإ إسلام من بعد طيٍّ، وهو منتشرُ

كان المسلمون يائسين من عودة القدس إلى حوزتهم؛ لكثرة مافيها من ذخيرة وعتاد، وقواد وأجناد، فلما فتحها صلاح الدين صعب عليهم

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ : ٣٨٢ .
(٢) الروضتين ٢ : ١١٨، شفاء القلوب ص ١٦٧ .

تصديقه، وعدّوه من المعجزات التي أجراها الله على يده. وقد عبّر الشعراء عن ذلك بقصائد طويلة، منها قصيدة محمد بن أسعد الجواني، نقيب الأشراف بالديار المصرية ،وأولها (١):

أترى مناماً مابعيني أبصرُ؟ القدس يُفتح والفرنجه تكسرا
ومليكهم في القيد مصفودولم يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسر

ذهل الشاعر ، واصابته الدهشة ، ولم يصدق بصره ، أهو في يقظة، أم في منام؟حينما رأى فتح القدس ، واندحار الافرنج ، واسر مليكهم وتقييده بالحديد .

وسلك ابن الساعاتي مسلكا آخر أكثر جدّة وطرفه في افتتاح قصيدته وتبيان مشاعره الوجدانية ،اذ تساءل : هل أصاب العيّ الالسنة للتعبير عن هذا الحدث العظيم الذي طار ذكره في الافاق، واسمع الاذان الصماء (٢)؟

وقد ساغَ فتح القدس في كل منطق وشاع الى ان أسمع الاسل الصما

وتمنى ان لو شهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الفاتح الاول لها ، هذا الفتح ، ثم انتقل فذكر المدينة ، وهي تعاني مرضا عضالا لايُجدي معه كل دواء ، غير الحسام العضب

فليت فتى الخطاب شاهد فتحها فيشهدَ ان السهم من يوسف اصمى
وما كان الا الداء أعيا دواؤه وغير الحسام العضب لايعرف الحسما
وأصبح ذاك الثغر جذلان باسماً وألسنة الأغماد توسعه لثما

ومن المدن التي حظيت بالاهتمام بعد القدس ، مدينة دمياط التي أحدق بها الصليبيون وأرادوا استباحتها ، ولكن همة ملك مصر محمد بن أبي بكر حالت دون تحقيق ذلك ، اذ جلاهم عنها ، وأنقذ ساكنيها من كارثة كادت لاتبقي ولا تذر ، وأقام اثر دخوله لها مجلساً كبيراً حضره المهنئون ونهض

(١) مفرج الكروب ٢ : ٢٣٣ .
(٢) ديوان ابن الساعاتي ١ : ٣٨٥

راجح بن اسماعيل الحلي ، وأنشده قصيدة تطفح بالبشر والفرح ، وتتهلل بالنصر الباهر الذي حباه الله للصادقين ، واخزى به وجوه الماكرين الافاكين (١) :

هنيئاً ، فإن السعد راحَ مخلّدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إلهُ الخلق فتحا بدا لنا مبينا وإنعاماً وعزاً مؤيّدا
تهلّلَ وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجهالشرك بالظلم أسودا

وانشده البهاء زهير قصيدة اتشحت نفسه فيها بالافراح ، وتلفعت بوشاح الانشراح ، مطلعها (٢) :

بكاهتز عطفُ الدينفي حُللِ النصرِ ورُدتْ على أعقابها ملّةُ الكفرِ

ولم تكن مصر — حسبما ذكر الشاعر — جذلة بهذا النصر : بل بغداد ومكة ويثرب ؛ لأنهن أصبحن في مأمن من صروف الدهر ونوائبه:

ومافرحتْ مصرٌ بذا الفتحِ وحدها لقد فرحتْ بغدادُ أكثر منمصرِ
فلو لم يقمْ للهِ حق قيامهِ لما سلمتْ دارُ السلامِ من الذعرِ
فمن مبلغٌ هذا الهناءَ لمكةٍ ويثرب تُنهيهِ إلى صاحبِ القبر
فقلْ لرسولِ اللهِ : إن سميهُ حمى بيضة الإسلامِ من نوب الدهرِ

وصف الجيش:

أسهم شعر الحرب في وصف الجيش، ودقة تنظيمه، وقدرته العاليةفي الاقتحام والالتحام، ومهارته الفائقة في جلاد العدو والانقضاض عليه. والظاهر أن بعض الشعراء كان يصطنع شعره الحربي، ويتكلف في بنائه مثل العماد الأصفهاني في وصفه جيش ناصر الدين محمد بن شيركوه(٣):

---

(١) شفاء القلوب ص ٣٠٧ .
(٢) ديوان بهاء الدين زهير ص ١٢١
(٣) سنا البرق الشامي ١ : ١٩٠ .

وكتيبةٍ مثل الرياض كأنّما رايـاتهـا منشورةٌ أزهارُ
وكأنما خضرُ البيارق للقـنـا ورُقٌ وهـامـاتُ العُداة ثمارُ
وكمائمُ الأغماد عن زهرِ الظبّي فتقت فكلٌّ صقيلةٍ نـوّارُ
وعلى شعاع الشمس لمع حديدها يبدو كما يعلو اللُّجين نضارُ

نقلنا الشاعر في أبياته إلى رياض غناء، بديعة الأزهار والأشجار والثمار، تلفت الزائرين، وتعجب الناظرين، وأطلق عنان خياله ليخرج تشبيهات بعيدة عن ميدان القتال، وصرير الحديد ، وصهيل الخيل، وطراد الفرسان ويبدو أن معين العماد الأصفهاني الرياض والمروج ، ينتج منه صوره الحربية، ويعرضها للمشاهدين . ففي قصيدة أخرى يصف فيها جيش صلاح الدين بقوله (١):

للهِ جيشٌ بالمروجِ عرَضْتَهُ أسْدُ العرين رجاله ورماحُهُ
ومن الحديد سوابغاً أبدانـهُ ومن المضاءِ عزائماً أرواحُهُ
روض من الصفرِ البنود وحمرِها والبيض ، يُزهى وَرْدَهُ وأقاحهُ

ويخرجنا ابن عُنين من ساحات المروج والرياض إلى البيداء التي ضاقت هضابها ووهادها بجيش جرّار يقوده كلّ بطل كرّار من بني أيوب امتلأ مضاء ، وتدرّع عزماً (٢) :

يقودهم من بني أيوب كلّ فتىً ماضي العزائمِ لانكسٌ ولانخبُ(٣)

وتهاب الأعداء هذا الجيش وتحذره، وتتراجف من سطوته، وتتوقى مبادرته، وتتحامى مقابلته (٤):

متى عاينتهُ المشركون تقطّعَتْ لهيبتهِ أكبادهُمْ والمفاصلُ

(٢) الخريدة، قسم مصر ١ : ٢٠ .
(٣) ديوان ابن عنين ص ٤٨ .
(١) النخب : الجبان .
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٣١٨ .

وهو اذا مادب في الأرض لايُبقي مكاناً خالياًمن تزاحم سنابك الخيول بين الجماجم ،وأسراب الطير التي تحوم فوقه تحجب الشمس ، ماخلا أشعة متناثرة كالدراهم هنا وهناك ، وهي صورة فيها من الحركة مايمكن أن يلحظ من السرى والسطوة ونثر الحرباء شعاعها فوق عقابه(١):

فاذا سرى ملأ العـراء سنابكاً واذا سطا ملأالقفار جماجما
فغزالةُ الحرباءِ فوق عُقابـه نثرتْ عليه من الشعاع دراهما

وصورة الطير الذى يرافق الجيش المنتصر — وان كانت مألوفة في ادبنا القديم — تتكرر عند عدد من شعراء هذه الحقبة ، ولا نلمح تلويناً جديداً ، ويكادفتيان الشاغورى من اكثرهم ايراداً لها ، مثل قوله (٢) :

خميسٌ له الرايات ظلٌ ،وفوقه من الطيرِ ظلٌ يحجب الشمس سادل

وقوله (٣):

قد عود الطير عاداتٍ وثقّن بها يوم الوغى،فهو مطعامٌ ومطّعان

وللجيش صور كثيرة في دواوين الشعراء آنذاك ،ونجدها بارزة في ديوان ابن سناء الملك، ففي احداها يظهر لنا قدرة جيش صلاح الدين القتالية، واندفاعه إلى الموت، وترفّعه عن الأسلاب والغنائم، وانصياعه إلى قائده الذي أعده وهذبه ودربه (٤):

وجيشٌ به أسد الكريهةِ غُضبُ وإن شئتَ عقبانُ المنيةِ حومُ

---

(١) ديوان شرف الدين الأنصاري ص ٤٤٠ .
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٣١٧ .
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ٤٧٦ .
(٤) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٩٢ .

يعفون عن كسب المغانم في الوغى فليس لهم الا الفوارسُ مغنمُ
اذا قاتلوا كانوا سكوتاً شجاعةً ولكن ظُباهم في الطلى تتكلّم
بإقدامهم نالوا الحياةَ وربّما يؤخّرُ آجالَ الرجال التقدمُ
وأنتَ الذي هذبتهم فتهذبوا وأنتَ الذي فهّمتهم فتفهّموا
ضربت بهم قوماً نياماً جهالةً فلا نائمٌ الا وأيظهُ الدم

ولم يقف الشعراء عند وصف الجيش الإسلامي المنتصر ، وانما تجاوزه الى وصف الاعداء ، وما وقع عليهم من هزيمة واستسلام وغالبا ما تأخذ هؤلاء الشعراء نشوة النصر فيقعون في التهويل والمبالغة ، من ذلك مثلا قصيدة ابن سناء الملك التي قالها لما توجه الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف من مصر سنة ٥٩٤ للهجرة الى تبنين » (١) وخلصها من الصليبيين الذين نازلوها بفارسهم وراجلهم ، واحدقوا بها وضايقوها (٢٢)، ومطلعها :

والشام للاسلام دار القرار وكان من قبل طريق الفرار

ومنها :

جئت « لتبيين » ومن حولها قوم كأعداد الحصى ، للحصار
وطبقوا البحر سفيناً فما بان ، وساروا فوقها في قفار
ويمّموا الثغر ، وطافوا به وأحدقوا كالغل لا كالسّوار
وكان ذاك الثغر مع أهله وقبل ان يحضره في احتضار
وانهزموا للبحر اذ أبصروا بحر وغى تغرقُ فيه البحار
وعذرُهم اذ هربوا واضحٌ هل يثبتُ الليلُ أمام النهارْ
أقسم ما شدّوا إزاراً لهم الا لأن الليل مرخيّ الإزارْ
وانقلبت بالذلّ أزياؤهم فصار ذو المغفر ذات الخمارْ

انها وصف لامواج الصليبيين المحدقين بمدينة « تبنين » ، وهم كالحصى عدداً ، وسفنهم الراسية في البحر حالت دون رؤية الماء الزاخر لكثرتها وتزاحمها

(١) تبنين : بلدة بين دمشق وصور (معجم البلدان ٢ : ١٤) .
(٢) مفرج الكروب ٣ : ٧٥ .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ١٣٢ .

ومع ذلك لم يستطيعوا الصمود تجاه القوة العظيمة التي داهمتهم ، واحالتهم الى يباب يتطاير أماهم خوفا وهلعاً ، واقسم الشاعر ان رجالهم ولّوا هاربين بلا أزر ، وقوادهم نزعوا مغافرهم ، وبدّلو أزياءهم وغيروا هيئاتهم ، وصاروا كالنساء المذعورات . انها مبالغات دبجتها مخيلة الشاعر ليقدمها هدية لممدوحه المنتصر .

وصف آلات الحرب وأدواته :

كانت الحرب وما يتصل بها شغل الناس الشاغل آنذاك ، فانهم عنوا بالادب الذي تناول وصف آلاته وأدواته الى جانب الكتب التي ألفت فيه مثل «عمدة السالك في سياسة الممالك » ليعقوب بن صابر المنجنيقي الذي «يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها ، وفتح الثغور . وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية ، والهندسة ، والمصابرة على القلاع والحصار ، والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل اداة الحرب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها (١) . وثمة رسالة قيمة في الات الحرب وأدواتها بعنوان «تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الاعلام في العدد والآلات المُعينة على لقاء الاعداء» ألفها مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي المتوفى سنة ٥٨٩ للهجرة لصلاح الدين الايوبي (٢) .

كان سلاح المحاربين في عصر بني أيوب — كما كان سابقاً — السيف والرمح والقوس والمجن، ويلبس الفرسان الدروع من زرد أو جلد ، ويضعون المغافر على رؤوسهم، وقد ذكرها الشعراء في شعرهم،وتفننوا في تصويرها، وأوضحوا أثرها، وبينوا فعلها. وللسيف القدح المعلّى من هذا الشعر،فهو زينة الوجل الشجاع ، يصطحبه في سلمه وحربه.يذب به عن نفسه، ويفري بحدّه رقاب خصومه. وكان صلاح الدين يوليه اهتمامه،قال على بن ظافر

(١) وفيات الأعيان ٧ : ٣٦ .

(٢) طبعت في بيروت سنة ١٩٤٨ بتحقيق كلود كاهين .

الأزدي: وجرى بين يدي القاضي الفاضل ذكر سيوف السلطان الملك الناصر — رحمه الله — فارتجل قطعة علق بحفظي منها (١):

ماضياتٌ على الدوام دوامي ... هي في النصر نجدةُ الاسلام (٢)
في يمين السلطان، إن جَرَّدَتْها ... أشبَهتها صواعقٌ في غمام (٣)
تنثرُ الهامَ كالحروفِ، فما أشـ ... ـبهَ هذي السيوفَ بالأقلامِ
في محاريبِ حربهِ البيض صُلّتْ ... وركوعُ الظبى سجودُ الهامِ

من هذه الأبيات — وإن كانت على شيء من التكلّف والتصنع — نستدل أن صلاح الدين كانت له مجموعة من السيوف يتولاها حدّاً وصقلا بحيث دفعت الأُدباء للتحدّث عنها في مجالسهم وارتجال الأشعار في أوصافها ومضائها في حومة الوغى.

وقد أغربت مخيلة الشاعر الضرير سعادة بن عبد الله الحمصي في تصوير سيوف صلاح الدين المرهفات؛ إذ جعل أغمادها رؤوس الفوارس المهاجمين بتيجانها وهي مرصّعة بالفضة والذهب وفصوص العقيق الملطّخة بالدم وكأنها ورود بين رياحين وشبّه لمعان نصالها بين مثار النقع بالنار المتوهجة بين دخانها (٤):

غيثٌ يكرّ من الظُّبى بصواعق ... ماء الرَّدى يجري على نيرانها
بصوارم، أجفانها قِمم العدى ... لاما كساها القَيْنُ من أجفانها
فضيّةٍ ذهبيّة، فلُجينها ... يختال يوم الروعِ في عقيانها
محمرةً بدم الفوارس خُضرها ... فالوردُ منثورٌ على رَيْحانها
من كل لامعةٍ بليلِ قَتامها ... كالنارِ لامعةً بليلِ دُخانها
تلك السيوفُ المرهفات بكفه ... أمضى على الأيام من حدثانها

(١) ديوان القاضي الفاضل ٢ : ٤٤٤، وانظر بدائع البدائه ص ٣٩٧.
(٢) دوام : جمع دامية، أي يسيل عليها الدم.
(٣) جردتها : الفاعل ضمير يعود على اليمين.
(٤) الخريدة، قسم الشام ١ : ٤٠٦.

قُضُبٌ اذا اقترنت كواكب بيضها بكريهةٍ كانت ردى أقرانها
مهزوزةٌ للضربِ في يدِ ماجدٍ ضربٌ أطاح الروس عن أبدانها

ونجد الرماح تعاضد السيوف في الميدان ، والتقاء الجموع ، ضرباً وطعناً وقد برع الشعراء في نعتهما ، وتفننوا في رسمهما صوراً حيّة متحركة ومن طريف ماصيغ في ذلك أبيات ابن الساعاتي التي يقول فيها (١) :

وسل ألسن الأعلام عن فتكاته غداة التقى الجمعان : كفرو ايمان
بحيث كلوم الدارعين لدى الوغى موارد ، والسمر الذوابل أشطان
كأن القنا أغصان بان، وبيضهم جداول، والزعف المضاعف غدران
هناك دماء القوم حمر ، مزاجها مياه المواضي ، والأسنة ريحان
اذا ماتغنّى السيف في الهام والطلى خفيفاً تثنى رمحه، وهو نشوان

إنه أنشأ أبياته على سبيل التخييل، فالرماح أشطان بئر تستقي الدماء من كلوم فرسان الأعداء، ثم جعلها جزءاً هاماً من مكونات الرياض ، فهي أغصان أشجار البان، والسيوف جداول مياه ، وزرد الدروع غدران متناثرة في أرجائها .

ومن لوازم المقاتلين الضرورية الدروع السابغة، والمغافر الصلبة . يقول فتيان الشاغوري (٢):

فعزمه تحت العجاج ماانثنى وسيفهُ يومَ الهياجِ مانسبا
يميسُ في سابغةٍ ومغْفَرٍ فيها يُرينا القمرَ المنتقبا (٣)

أما السهام فلها دورها البارز في ضرب الأعداء، وبخاصة من أماكن بعيدة، أو مواضع مرتفعة كالقلاع والحصون، وهي اذا انطلقت بقوة وسرعة لاتردّها الدروع الدقيقة النسج كما يقول فتيان الشاغوري (٤):

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ : ١٢٩ .
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢٥ .
(٣) السابغة : الدروع الواسعة : المغفر : زرد ينسج على قدرالرأس وقيل هو حلق يتقنع به المتسلح.
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ص ٥٣

يرمي بأسهمه يوم النزال فما ترد هن الدروعُ السابريات

وكانت الخيل الوسيلة الرئيسة في الاقدام والاحجام ،فأكثر الشعراء من وصفها واسباغ النعوت عليها ، وهي في جملتها لا تخرج عن اوصاف القدماء ونعوتهم ، من ذلك قول ابن عُنين :(١)

الخائضُ الغمراتِ في رهجِ الوغى والحربُ حاسرةٌ بغير قناعِ
بمطهمٍ نهدٍ ، كأنَّ مروره سيلٌ تدافعَ من متونِ قلاعِ
أو لقوةٍ شغواءَ حقّقَ طرفُها من رأسِ مرقبةٍ طَلاً في قاعِ (٢)

ونلمح في بيتي فتيان الشاغوري الآتيين صورة جميلة للخيل العائدة من فتح بيت المقدس، وهي نشوى، تشدو كشدو المغنية «النُّحيلة» بشعر أبي عبادة البحتري (٣):

والخيلُ مطربةٌ، كأنَّ صهيلها شَدْوُ النّحيلَة في نسيب البحتري
نشوى تميدُ من المرورِ كأنّما صَبَحتْ كؤوساً من شرابٍ مسكرِ

واستخدمت الآلات الثقيلة في الحروب آنذاك، ولاسيما في حصار المدن، مثل المنجنيق الذي يرمي الحجارة الثقيلة، والزراقة التي تبعث النفط المشتعل في أنابيب خاصة، والدبابة وهي أخطرها، قال ابن شداد في وصفها(٤): «يدخل تحتها من المقاتلين خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل،ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمّى كبشاً، ينطح بها السور بشدة عظيمة » وقد ورد ذكر المنجنيق وآلة أُخرى تعرف بالبرج في الشعر . قال ابن النبيه مخاطباً الملك الأشرف موسى حينما توجّه الى بلاد الروم (٥) :

---

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٣ .
(٢) اللقوة الشغواء : العقاب الأنثى لزيادة منقارها الأعلى على الأسفل .
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٣ .
(٤) النوادر السلطانية ص ١٤١ .
(٥) ديوان ابن النبيه المصري ص ١٩٤ .

ستملك أرضَ قُسنْطينة وما كان للروم منها يقارب
كأني بأبراجها قد هوتْ وصخرِ المجانيقِ فيها ضوارب
وقد زحَف البرجُ زحَف العروسِ اليها يجرُّ ذيول الكتائبْ
فما لُبْسُهُ غير نسجِ الحديدِ وما حليُهُ غير بيضِ القواضب
وأضرمت النارُ حشو النقوب وثار الدخانُ كجنح الغياهبْ

وكان للأسطول في هذه الحروب قيمته وأثره ، وقد عُني صلاح الدين به وأعطى المشرف عليه سلطة كبيرة في تخيير رجاله و اعداد سلاحه ومما جاء في وصف السفن الحربية، ولاسيما الكبيرة منها المعروفة بالشواني قول المهذب ابن الزبير (٢) :

وكأن بحر الرُّوم خُلِّق وجهه وطغَتْ عليه منابتُ المرجانِ
ولقد أتى الأسطولُ حين غزابما لم يأتِ في حينٍ من الأحيانِ
أحببْ الي بها شواني أصبحتْ من فتكها ولها العداةُ شواني
شُبِّهن بالغربانِ في ألوانها وفعلن فعل كواسر العقبانِ
أوقرْتَها عُدد القتالِ ،فقدغدتْ فيها القنا عوضاً من الأشطانِ
فأتتلك مُوقَرةً بسبيٍ بينه أسراهمُ مغلولة الأذقانِ
حربٌ عوانٌ حكّمتْكَ من العدا في كل بكرٍ عندهمْ وعوانِ

وصف الأبطال :

يعالج جزء كبير من الشعر الذي ندرسه وصف الأبطال، وبيان شجاعتهم، ورباطة جأشهم، وثبات نفوسهم ، وشدة شكيمتهم، وجدارتهم في ركوب الخيل، وصبرهم على المصاولة ، وبأسهم في المنازلة ، ومهارتهم في تسديد الضربات القاتلة، والطعنات المميتة ، وقد جاء أكثره على لسان الشعراء المداحين ، وأقله على لسان الفرسان أنفسهم ؛ وقد نعزوه إلى أن الفارس الشاعر تستأثر الحرب بمعظم احساسه فلايبقى منه الاّ القليل يسكبه في قصيدة

(١) في مفرج الكروب ٢ : ١٣ نص يحدد حمولة الشيني بمائة وخمسين جندياً .
(٢) الخريدة، قسم مصر ١ : ٢١١ .

أو عدد من المقطوعات على حين نرى الشاعر يعالج احساسه الذي يضطرم في جوانحه فيسكبه شعراً كله ، يحمل أوار نفسه وتوقد مشاعره قال محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة الذي جرت له وقائع مع الافرنج ،وانتصر عليهم (١):

كم قد أبدتُ بسيفي كل مفتخرٍ حامي الحقيقةِ يوم الجحفل اللجب
وكم تركتُ بني الإفرنج في رُعبٍ فصرتُ أدعى لديهم جالب الرّعبِ
وكم جررتُ اليهم حجفلاً لجباً بالسابريّةِ ، والماذي واليَلَب (٢)
كفعل أبائي الغر الذين همُ كانوا لدين الهدى كالوالدِ الحدبِ

كما جرى الشعر على ألسنة الجنود يحمسون به أنفسهم أو يصورون بعض أفعالهم ومواقفهم من العدو تصويراً هو أقرب إلى الخاطرة الحارة المتدفقة منه إلى الشعر الموصول الأفكار ،فكأنهم يردفون ضربة السيف بأبيات من الشعر تحمل مايجيش في نفوسهم من هذه المشاعر الثائرة ، مثل قول الجندي محمد بن يعقوب بن علي (٣):

دعني أخاطر في الحروب بُمهجتي إمّا أموتُ بها ، وإما أُرزق
فسواد عيشي لا أراه أبيضاً الا اذا احمر السّنان الازرق

والشعر الذي يفتخر بالبطولة والفروسية ، ويعتد بالقوة والبسالة ، ويتغنى بالنصر والظفر كثير في دواين هذه الحقبة ، ومن ذلك ماجاء في ديوان ابن عُنين قصيدة مطلعها (٤) :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغن عنا اذا جُهلت آياتُنا والقنا اللّدنا

وقدم ابن عُنين ثمر موهبته ، وحصاد شاعريته في هذه القصيدة الحماسية التي رسم فيها صورة حيّة للمعركة التي دارت قرب مدينة دمياط سنة ٦١٨ للهجرة،وانكسر فيها العدو، وولى هاربا مذعوراً لايلوي على شيء ، قال فيها :

(١) مفرج الكروب ٤ : ٨٢ .
(٢) السابري : درع دقيقة النسج، الماذي : كل سلاح من حديد. اليلب : الترسة، وقيل الدروع
(٣) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٦٧ .
(٤) ديوان ابن عنين ص ٢٩ .

غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لايُحصى يقيناً ولا ظنا
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمّةً ... وديناً ، وإن كانوا قد اختلفوا لُسنا
عليهم من الماذي كل مُفاضةٍ ... دلاصٍ كقرن الشمس قد أحكمتْ وَضنا (١)
وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا ... إلينا سراعاً بالجيادِ وأرقلنا
فما برحتْ سمرُ الرماحِ تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منّا
سقيناهمُ كأساً نفتْ عنهم الكرى ... وكيف ينامُ الليلَ من عَدِم الأمنا

إنها صورة واضحة للخصوم القادمين من الغرب بأعداد كبيرة طمعاً في خيرات الشرق ، تجمعهم وشائج الدين والرأي والعقيدة ، مع تباعد أوطانهم ، واختلاف ألسنتهم . وقد دفعهم الغرور ، وظنوا أنهم قادرون على أخذ دمياط تمهيداً للسيطرة على مدن أُخرى في وادي النيل . ولكن الضربة القاصمة التي جاءتهم كبحت جماحهم ، وحطّمت غطرستهم ، وسقتهم كأس المنون ، وجعلتهم يستجيرون بقوات المسلمين . وتظهر في القصيدة مباديْ الفتوة والفروسية الأصيلة ، والشهامة العربية العالية في مراعاة الأسرى والمستجيرين :

لقوا الموتَ من زرقِ الأسنّةِ أحمراً ... فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنّا
وما برحَ الإحسانُ منّا سجيةً ... توارثها عن صيد آبائنا الأبنا
منحنا بقاياهم حياة جديدة ... فعاشوا بأعناقِ مقلّدة منّا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ... ولوغاً ، ولكنّا ملكنا فأسجحنا (٢)

وبالغ الشعراء في إضفاء صفات الشجاعة النادرة على ممدوحيهم . ففي شعر ابن الساعاتي تتجلّى أمارات معينة للملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف نمّت على كثرة تمرسه بالحروب ، وتميزه على أقرانه فيها ، من مثل قوله (١) :

---

(١) دلاص : ملساء . وضناً : نسجاً
(٢) أسجح : أحسن العفو ، وفي المثل : ملكت فأسجح
(٣) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٢٠ .

كم وقعة أقدم فيها مصلتاً ... حيث السهامُ خيفة لاتقدمُ
تبكي السيوف والعوالي شجوها ... ويضحك الذئب بها والقشعمُ
اذا انبرى في مأزق وحلّقت ... طيور جوٍ للقرى تزدحمُ
شكت هل تلك الطيور خيلهُ ... أم تلكمُ الخيلُ طيورٌ هُرمُ
خضن المياه، وهي صرفٌ وانثنت ... مغذة وهي مياه ودمُ
فالوعرُ سهلٌ، والجبالُ كُثبٌ ... والصعبُ هينٌ ، والبعيد أمَمُ
لاتسألني عن أعاديه وسلْ ... مافعلت عادٌ وأين جرهمُ
ينثر هاماتهم بسيفه ... والقلوب بقناه ينظمُ

فالممدوح ذو وقائع كثيرة، وحملات مترادفة ، ضاقت منها ذرعاً والرماح والسيوف والخيول ، وانتشت بها حبوراً الذئاب والقشاعم ، فالأولى لما يصيبها من أثر القراع والكلوم، والثانية لما يهيئ لها من الولائم الحافلة بأطايب الطعام، وهو ذو بلاءٍ بعيد، وهمّة عالية نافذة لايعيقه الصعب، ولايحول دون مأربه البعيد، حتّى إنه يقضي على أعاديه القضاء المبرم فيستأصل شأفتهم، ويخمد أنفاسهم، وكأنهم مما عفّى عليه التاريخ السحيق .

ونرى صورة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد عند البهاء زهير مشرقة وضاءة ،فجياده تتطلّع اليه، وتحن شوقاً ، والسمر ترقص طرباً ،والسيوف تصّفق حبوراً كما في قوله (١):

أبداً تحنّ إلى الطراد جيادُهُ ... فلها اليه تشوّفٌ وتشوّقُ
يبدي لسطوته الخميسُ تطرّباً ... فالسُّمرُ ترقصُ والسيوفُ تصفقُ
في طي لامته هزبرٌ باسلٌ ... تحت العريكة منه بدرٌ مُشرق
يُروي القنا بدم الأعادي في الوغى ... فلذاك تثمرُ بالرؤوس وتورقُ (٢)
يمضي فيقدُمُ جيشَهُ من هيبة ... جيش يغصُّ به الزمان ويشرقُ
ستجوبُ آفاق البلاد جيادُهُ ... ويُرى له في كل فجّ فيلقُ

(١) ديوان البهاء زهير ص ٢٢٦ .
(٢) اللامة : الدرع . الهزبر : من أسماء الأسد .

وأجلى مافي هذه الأبيات أنه أضاف صفة العاقل إلى الجماد، فاذا به يحس احساسه، وقد يربو عليه من خلال مانتدبره من حنين الجياد إلى الطراد، والسمر إلى الرقص، والسيوف إلى التصفيق. كما كلّل ممدوحه تاجاً من الهيبة في مسيره أمام جيشه الجرار كالأسد الهصور طالباً خصومه ليروي رماحه من دمائهم، وتثمر رؤوساً دانية القطاف.

وترتفع صورة الممدوح الملك العادل أبي بكر بن أيوب عند ابن سناء الملك حينما ينيط بها كل الافعال من غير ان يتسع في الجو الذي يهيئه لبطله المغوار (١) :

يبادرُ للاقران قبل بدادهم ... ولا يدرك العلياء من لم يبادرِ
وتسري الى النصر المبين رماحهُ ... فتعبر من أجسادهم في معابر
فحملاتُه لاتتقى بسوابغ ... وفِعْلاتُه لاتُتَّقى بالمعاذر
له الله ! ما امضاه حدَّ عزيمةٍ ... وأثبتهُ بينَ اختلاف البواتر
يَظلُّ بوجهٍ ضاحك الثغر باسم ... أمام نهارٍ كالح الوجه باسر

فهو شجاع ، لايهاب الردى ، يقذف بنفسه في أتون المعركة ، ويبادر أقرانه الكماة بجلادة وأنداده الفرسان بضراوة ، كما هو ذو إرادة قوية ، وعزيمة ثابتة ، لايكل ، ولايمل ، تراه ضاحك الوجه ، مبتسم الثغر في احلك المواقف واشدها ، ونرى مثل ذلك في قول فتيان الشاغوري (٢) :

أباح ثغور الكفر بالسيف عَنْوةً ... وسد ثغورَ السلم بالطعنِ في الثغْر
لقد كان يلقى المرهفات بوجهه ... وسُمَر القنا بالصدر في الورد والصدْر
وترعشُ أيديهم مهابتهُ فما ... لضربهم والطعن في جسمه أثرْ
وكان يردُّ الجحفل المَجْرَ وحدَهُ ... يمسونَ بالايدي الظهور من الخوَرْ

(١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ١١٩ .
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢١١ .

الممدوح فارس همام ، ومقاتل صدام ، يغشى الوغى بحماس واندفاع . يصدع قلوب الاعداء بمهابته ، فترتعش أيديهم ، ولايقدرون على الضرب بسيوفهم البتارة ، ورماحهم الغدارة ويرتدون على أعقابهم في هلع وخور .

ويضع ابن الساعاتي صورة لبطله الملك الافضل على بن صلاح الدين يوسف مجسّدة في اطار فخم ، تبرز فيها اسيافه الموشحة بالدماء، ورماحه النافذة في كلوم الاعداء ، وهو واقف ثابت الجنان ، يجالد الابطال الفرسان (١)

لبست صوارمه الدماء كأنها ... مغمورةٌ ، وظياتها لم تغمد
حيثُ الكلوم هي العيون وسمرهُ ... أميالها ورؤوسها كالاثمدِ
تهفوا الفوارس سجدا لحسامهِ ... صعر الخدود لغيره لم تسجدِ

ملامح فنية

بعد أن درسنا الشعر الذي عكس صدى المعارك التي دارت زمن بني أيوب، نذكر أبرز الملامح الفنية

إن حجم شعر الحرب الذي وصل الينا كبير ، وهو يتوزع بين قصائد طويلة تتنازل وصف المعارك، ورصد أحداثها، ومقطوعات قصيرة يلمس القاريء فيهاالفتات شعوريةحارة تجاهالأحداث المثيرةالتي رافقتتلك الحروب.

و معجم هذا الشعر بسيط وواضح، لاتعقيد فيه ولاغموض ، وتكاد ألفاظ الشعراء وعباراتهم تقرب من لغة الحياة التي لاتكد الذهن ولاتتعب الفكر في استكناه معانيها والوقوف على دقائقها.

وسمة السهولة والوضوح في الألفاظ والمعاني لم تكن سوى خلاصةلاتجاه معروف في القرنين السادس والسابع، عرف باتجاه الرقّة والسهولة، أو مدرسة الرقّة والسهولة كما يسميها الدكتور محمد كامل حسين (٢) واليك

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ : ١٣٤ .
(٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٠

هذه الأبيات للشاعر أسامة بن منقذ (١):

سلْ بي كماة الوغى في كل معركةٍ ... يضيق بالنفس فيها صدرذي الباسِ
ينبؤك بأني في مضايقها ... ثبْتٌ ، اذا الخوف هزالشاهق الراسي
أخوضها كشهاب القذفِ يصحبني ... عضبٌ كبرقٍ سرى أو ضوءمقباس

لقد استعمل الشاعر في مطلع أبياته أسلوباً خطابياً ،فقال: «سلْ» ، لاثبات قدرته في مباشرة الحرب، والضرب والطعن، والكروالفر، وهذه الظاهرة نلمحها عند الكثيرين ، ولاسيما الشعراء الذين اكتووا بنار الحرب وشاهدوا بأعينهم الدمار والخراب والقتل الذي أحدثته أيدي الصليبيين، وخير مثال على ذلك قصيدة بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجاري الحماسية التي خاطب بها الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة حينما كان مرابطاً في السواحل الشامية وهو ينتظر نجدة ملوك الشام ومساعدتهم، يقول في أولها (٢):

المجدُ يُدركُ بالعَسالةِ الذبل ... والمشْرفيهِ ،لابالوعدِ والأملِ
والجدّ في الجد ، فاجْتَنِبْها مسومةً ... يقودُها أسد بالأيْنُقِ الذلُلِ
مالذةُ العيش إلاصوتُ معمعةٍ ... يُنالُ فيها المنى بالبيضِ والأسلِ
ياأيها الملك المنصور نصح فتىً ... لم يَلْوهِ عن وفاءٍ كثرة العذل
اعزمْ ، ولاتركِ الدنيا بلاملكٍ ... وجد ، فالملك محتاج إلى رجلِ
وابرزْ إلى الموتِ يومَ الرَّوعِ مدرعاً ... قلباً ،اذا زالت الأفلاكُ لم يزُلِ
وهمّ في طلب العلياء مرتقباً ... وارسل الجيش أبدالاً من الرسل
واهصُرْ عداكَ كهصرِ الليثِ طعمتهُ ... وصُلْ اذا الليثُ في الهيجاءلم يصل
صفّدهم عاجلاً، واجعل حصونهم ... سجونهم فهم في غايةِ الفشلِ

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢١١ .
(٢) مفرج الكروب ٣ : ١٤٤ .

فالشاعر قد آمن بمبدأ القوّة في أخذ الحق، واسترداد المسلوب، واعادة المنهوب، فاستعان بهذا الزخم من الأفعال الطلبية (اجنب ، اعزم، لاتترك، جدّ، ابرز، هم ، أرسل، اهصر ، صل : صفّد، اجعل) ،وقد قصدبها تحريك القائد، ودفعه لاقتحام أورار المعركة، وانتزاع النصر من الخصم اللدود ولسنا بحاجة إلى ايراد أمثلة أخرى، فهي سمة واضحة في الشعر الحماسي الذي تستدعيه الأجواء التي سطعت فيها شُهب الحرب .

وثمة ظاهرة لغوية أخرى هي استعمال الألفاظ المعرّبة ، ولاسيما في أسماء العدد الحربية وأدواتها ومثال هذا ماورد في قصيدة للصاحب شرف الدين الأنصاري، وصف فيها شجاعة الملك المنصور محمد بن محمود وجيشه المقدام(١):

للـه درُّ كتيبـة ملمـومـة تبغيكَ حين حملتَ في جاليشها (٢)
جنّبتها نَغَمَ القيـان مُعَوَّضاً بتردُّدِ الأصواتِ من شاويشها (٣)

وقول فتيان الشاغوري في قصيدة مدح بها الملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل وهو متوجه إلى الحرب (٤):

فكم من رحى حرب، أداربماسقى به السمرَ والبيضَ الرقاقَ الدبابيسا (٥)

وقول ابن سناء الملك في مدح صلاح الدين بعد فتح نابلس (٦):

وقد رجمتها المنجيقات إذ رمتْ لشيخٍ لعينٍ كافرٍ جاهلٍ رذْلِ (٧)

وقد استقى بعضهم ألفاظه ومعانيه من معين الفقهاء والنحاة واللغويين مما أبعد الشعر عن خصائصه المعروفة ودل على العجز في التعبير عن التجارب

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ص ٢٧٠ .
(٢) الجاليش : في الأصل معناها الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر، ثم أطلق اللفظ على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه .
(٣) الشاويش : لفظ تركي، كان معناه في مصطلح العصر الأيوبي جندي مهمته النداء أو استنفار الجند.
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢٢٦ .
(٥) الدبابيس : جمع دبوس، عصا من خشب أو حديد في رأسها شيء كالكرة .
(٦) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٢٤ .
(٧) المنجنيقات : جمع منجيق، لفظ أعجمي معرب، وهو آلة من آلات الحصار يقوم مقام المدفع الحالي، وإن كانت قذائفه من الحجارة .

مثل قول فتيان الشاغوري بعد فتح صلاح الدين البيت المقدس (١)

أنشأتَ ملحمةً تُملُّ مقاتَل ... الفرسانِ بالعَدَدِ الذي لم يُحْضرِ
إعرابها ضربُ الحُسامِ ، ونقطها ... وقع السِّهامِ ، وخَطُّها بالسُّمهري
والحبْرُ بحرُ دمٍ تَغَطْمَطَ موجُهُ ... اذ ليس ثمَّ سوى الثرى من دفتر
والبيضُ تنثرُ ، وهي غيرُ حواطبٍ ... والسمرُ ناظمةٌ ، وإنْ لم تَشْعُرِ

ومن ذلك ماجاء في قصيدة لعلي بن المبارك المعروف بابن الزاهدة في مدح صلاح الدين: (٢)

اذا كانت الأعداء فعلاً مضارعاً ... أصار مواضيه الحروف الجوازما

وقد صحب سهولة الألفاظ، وبساطة التعابير، وضوح الصور الشعرية. وهي — وان كانت تحتفل بالمجازات والتشبيهات — مستملحة ، تعتمد الحركة والحياة في كثير من جوانبها كما ترى في أبيات فتيان الشاغوري التي عُني فيها بالجو العام الذي يحيط بممدوحه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ، وما يسفر عن فعاله من القتل والتمثيل (٣):

مَلْكٌ اذا نارُ الهياجِ احتِدمت ... في مأزقِ الحربِ الشديد الوقدِ
يوماً تَرَى فيه القنا رَواعِفاً ... والخيلُ تَرْدي والكُماةُ تُرْدي
والنقعُ فيه كالغمام والظبى ... بروقُهُ والركضُ صوتُ الرَّعدِ
هناكَ يُلقَى سيفُه بكفهِ ... صَلْتاً ومنْ دَمِ العدَى في غمدِ
يركعُ في الهام فتهوي سُجّداً ... منْ كل مَن لم يَتْلُ آيَ الحمدِ
فمن هناكَ عنترٌ و عامرٌ ... لديهِ في الإقدامِ وابنُ مَعْدي

فالحرب نار محتدمة، شديدة الاتقاد، والرماح تفجر الدماء ، والخيول

(١) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٢ .
(٢) معجم الادباء ٥ : ٣٠١ .
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ١١٢ .

تطأ أعناق المحاربين، والكماة يقتلون نظراءهم ، والنقع الثائر المنعقد سحاباً غليظاً، تبرق فيه الظبي ،والأصوات المنبعثة تشبه صوت الرعد قوة واصطحاباً.

هذا هو الجو العام الذي أعدّه الشاعر ليكون للممدوح خير ممهد لشجاعته واستخراج كل ضروب بأسه وفتوته. أما ما يتمخض عن اسهامه فذاك موكول الى سيفه المسلول الذي جعل دم الأعداء غمداً له ، ورؤوسهم موضع ركوعه وسقوطها سجوداً، فالممدوح — بعد هذا كله — يبذ فرسان العرب المشهورين من أمثال عنترة بن شداد العبسي، وعامر بن الطفيل الغنوي، وعمرو بن معديكرب الزبيدي،في البأس والشجاعة والاقدام.

والخيال في هذه الصور ليس بعيداً عن الحقائق أو قائماً على الاختلاق والتزييف . كما أن هذا الخيال مع صدق العواطف وحرارة المشاعر جعل تلك الصور جذابة تستهوى النظر وتجعله يقبل عليها ويشاركها روحياً ووجدانياً .

واستعان شعراء كثيرون في تلوين صورهم الشعرية ، وتزيين أطرها بزخارف بديعية ، وقد أحسن بعضهم استعمالها ، وأجاد في وضعها ، مما جعل أثرها في النفوس أوقع، وصداها في الآذان أعذب.وأساء آخرون ، فبرزت قبيحة مستكرهة مثل قول ابن الساعاتي في وصف سيوف الممدوح في الوغى (١) :

سقاها ريّها ، والعامُ محلٌ فعادت، والرؤوسُ لها اثمار
وأوطأ بيضه سود المنايا وكانت لا يحلّ لها إزار

شبه السيوف بالشجر، والدماء بالمياه الراوية ، ورؤوس الأعداء بثمار الشجر، ثم تغارب فشبّه المنايا بالجواري التي أحلت لسيوفه وكانت من قبل مصونات، وتوصلاً إلى هذه المعاني تكلّف ما تكلّفه من جعل نكاح البيض (السيوف) لسود الجواري (المنايا) التي لم يجسر أحد أن يحلّ ازارهن .

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ : ٣٦ .

وانظر إلى اقتران الطباق بالمبالغة في صورة الملك الأشرف موسى بن أبي بكر عند ابن النبيه (١) :

تؤمُّ الجوارحُ أعلامَهُ تروح بطاناً وتغدو سواغبْ
كأن السناجقَ أوكارُهـا فكم عُصَبٍ فوق تلك العصائب (٢)
أيا مَلِكَ الأرضِ حقّاً اليكَ مآلُ مشارِقها والمغاربْ

والمبالغة سمة بارزة لا تخفى على قاريء الشعر الحربي في هذه الحقبة، وقد تصل عند بعضهم إلى حدّ مستهجن، مثل قول ابن سناء الملك في مدح صلاح الدين (٣) :

بضربٍ يذيبُ الشمسَ في الأفقِ حرُّه ويحرق ما بين القلوب من الشحنا

وتقترن المغالاة بالحشو والتطويل والتكرار عند الكثيرين من الشعراء الذين ولجو باب الشعر الحربي أمثال فتيان الشاغوري، وابن الساعاتي، والصاحب شرف الدين الأنصاري ... وهذا الأمر — وإن كان يعكس الحركة النفسية الداخلية لدى الشعراء تجاه الحرب آنذاك — يقلل من القيمة الفنية لهذا الشعر، ويضعه في مرتبة دنيا اذا ما قيس بالشعر الحربي في عصر المتنبي وأضرابه من الشعراء .

ومن الجدير بالذكر أن الشعراء لم يخالفوا في نظمهم الأوزان العربية المعروفة، ما عدا العماد الأصفهاني الذي نظم دوبيتات في الجهاد، كما عنوا بالبحور الطويلة لجلال مظهرها، وعمق أثرها في النفوس أثناء الأنشاد، واستيعابها جملة المعاني، واعتمدوا القوافي جميعها، ولا سيما الراء لأنها من القوافي الذلل كما يقولون (٤) التي آثرها كثير من الشعراء في شعر الحرب ووصف المعارك .

---

(١) ديوان ابن النبيه ص ١٩٤ .
(٢) السناجق : جمع سنجق، راية صغيرة صفراء اللون .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢٣ .
(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١ : ٤٦ .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

المصادر والمراجع

١ — بدائع البدائه: علي بن ظافر الأزدي، ت ٦٢٣هـ، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم. المط الفنية القاهرة ١٩٧٠.

٢ — بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ. تح: محمد ابو الفضل ابراهيم. مط مصطفى الحلبي القاهرة ١٩٦٤.

٣ — الحماسة البصرية: صدر الدين بن أبي الفرج البصري، ت٦٥٩هـ. تح: د. مختار الدين احمد. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند ١٩٦٤.

٤ — الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة: ابن الفوطي، ت ٧٣٢هـ. تح: مصطفى جواد. مط الفرات بغداد ١٣٥١هـ.

٥ — خريدة القصر وجريدة العصر: عماد الدين الأصفهاني، ت ٤٩٧هـ. بداية قسم شعراء الشام. تح. د. شكري فيصل. المط الهاشمية دمشق ١٩٦٨.

شعراء الشام. مط المكتبة الهاشمية دمشق ١٩٥٥ — ١٩٦٤.

شعراء مصر: تح: أحمد أمين، شوقي ضيف، احسان عباس. مط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥١.

٦ — ديوان ابن الساعاتي: تح: انيس المقدسي. المط الأميركانية بيروت ١٩٣٨.

٧ — ديوان ابن سناء الملك: تح: خليل مروم. مط دمشق ١٩٤٦.

٨ — ديوان ابن النبيه المصري: تح: عمر محمد الأسعد. ط دار الفكر ١٩٦٩

٩ — ديوان بهاء الدين زهير: مط دار صادر بيروت ١٩٦٤.

١٠ — ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري: تح: د. عمر موسى باشا المط الهاشمية دمشق ١٩٦٧.

١١ — ديوان فتيان الشاغوري: تح: أحمد الجندي. المط الهاشمية دمشق ١٩٦٧.

١٢ ــ ديوان القاضي الفاضل: تح: د. أحمد أحمد بدوي. مط دار الكتاب العربي مصر ١٩٦١.
١٣ ــ الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة المقدسي، ت ٦٦٥هـ. مط وادي النيل القاهرة ١٢٨٧هـ.
١٤ ــ زبدة الحلب من تاريخ حلب: ابن العديم، ت ٦٦٠هـ. تح: د. سامي الدهان المط الكاثوليكية بيروت ١٩٦٨.
١٥ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي، ت ٨٤٥هـ. مط دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٤.
١٦ ــ سنا البرق الشامي: الفتح بن علي البنداوي، ت ٦٤٢هـ. تح: د. رمضان ششن. ط دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧١.
١٧ ــ شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي الى عهد سيف الدولة: د. زكي المحاسني . مط دار المعارف القاهرة ١٩٦١.
١٨ ــ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: أحمد بن ابراهيم الحنبلي، ت ٨٧٦هـ. تح: ناظم رشيد. دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٩.
١٩ ــ عيون الأنباء في طبقات الاطباء: ابن أبي أصيبعة، ٦٦٨هـ. مط الأقبال بيروت ١٩٥٦.
٢٠ ــ الكامل في التاريخ: ابن الاثير، ٦٣٠هـ. ط دار صادر بيروت
٢١ ــ كشف الظنون: حاجي خليفة، ت ١٠٦٨هـ. المط الاسلامية طهران ١٩٦٧.
٢٢ ــ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ابن واصل، ت ٦٩٧هـ. تح: د. جمال الدين الشيال. جـ٢، المط الأميرية القاهرة ١٩٥٧. جـ٣، مط دار القلم القاهرة ١٩٦٠. جـ ٤، تحقيق د. حسنين محمد ربيع مط دار الكتب ــ القاهرة ١٩٧٢.

٢٣ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي، ت ٨٤٥هـ. ط بولاق ١٢٧٠هـ.
٢٤ ـ النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي، ت ٨٧٤هـ. مط دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٦.
٢٥ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: بهاء الدين بن شداد، ت ٦٣٢هـ. تح: د. جمال الدين الشيال. ط الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٤.